وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتـدروا أمره ، وإذا توضـأ كادوا يقتتلون على وضوئـه ، وإذا تكلموا خفضـوا أصـواتهم عنـده ، ومـا يحـدّون إليـه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقـال : أي قوم والله لقـد وفـدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجـاشي ، والله إن رأيت ملكاً قـط يعظمـه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ ﷺ محمداً !.. وإنه قـد عرض عليكم خطـة رشد فاقبلوها .

ثم إنهم أرسلـوا إليـه سهيـل بن عمرو ممثـلاً عنهم ليكتب بينهم وبين المسلمين كتاباً بالصلح ، فلما جلس إلى رسول الله ﷺ قال : هـات أكتب بيننـا وبينكم كتـابـاً . فـدعـا النّبي ﷺ الكاتب (وكان الكاتب عليـاً رضي الله عنـه ـ فيما رواه مسلم) فقـال النّبي ﷺ : أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقـال سهيـل : أمـا « الرحمن » فـوالله مـاأدري مـاهي ، ولكن أكتب بـاسمـك اللهم ، فقـال المسلمـون : والله لانكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقـال النّبي ﷺ : أكتب بـاسمـك اللهم . ثم قـال : هـذا مـاقـاضى عليـه محمـد رسـول الله . فقـال سهيـل : والله لـو كنـا نعلم أنـك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قـاتلنـاك ، ولكن اكتب « محمـد بن عبـد الله » ، فقـال رسـول الله ﷺ : والله إني لرسـول الله وإن كذبتموني !.. أكتب محمد بن عبد الله . (وفي رواية مسلم : فـأمر عليـاً أن يمحـوهـا ، فقـال عليٌّ لا والله لاأمحـوهـا ، فقـال رسـول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها فمحاها) ، فقـال لـه النّبي ﷺ : على أن تخلّوا بيننـا

وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله ، لاتتحدث العرب أنا أُخذْنا ضغطـة ، ولكن ذلـك من العـام القـادم وليس مع المسلمين إلا السيوف في قرابها . فكتب . فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منـا رجل وإن كان على دينك إلا رددتـه إلينـا ، ومن جـاء منكم لم نرده عليكم ، فقـال المسلمون : سبحـان الله ، كيف يردّ إلى المشركين وقـد جـاء مسلماً ؟! (والتفتوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه : أنكتب هذا يـارسول الله ؟! قـال : نعم ، إنـه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنـا منهم فسيجعل الله لـه فرجـاً ومخرجاً)[٥] .

وكانت مدة الصلح بناء على هـذه الشروط ـ على مـا رواه ابن إسحـاق وابن سعـد والحـاكم ـ عشر سنين لا إسـلال فيهـا ولا إغـلال (أي لا سرقـة ولا خيانة) وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيـه . فتواثبت خزاعة فقالوا : « نحن في عقد محمد وعهـده » . وتواثبت بنو بكر فقالوا : « نحن في عقد قريش وعهدهم » .

ولما فرغ من الصلح والكتابة ، أشهد على الكتـاب رجـالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين .

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطـاب قـال : « فـأتيت نبي الله ﷺ ، فقلت ألست نبي الله حقاً ؟ قـال : بلى ، قلت : ألست على حق وعـدونـا على باطل ؟ قال : بلى ، قلت : أليس قتلانا في الجنـة وقتلاهم في النـار ؟ قـال : بلى ، قلت : فلمـاذا نعطي الـدنيّـة في ديننـا إذن ؟ قـال : إني

(٥) مابين القوسين تفصيل لرواية مسلم . والحديث بطوله من لفظ البخاري مع زيادات لمسلم .

رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري . قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قلت : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوف به . فلم يصبر عمر حتى أتى أبا بكر رضي الله عنه فسأله مثل ماسأل النّبي ﷺ ، فقال له يا ابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يعصي ربّه ولن يضيّعه الله أبداً . فما هو إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياها . فقال : يا رسول الله ، أَوَفَتْحٌ هو ؟!.. قال : نعم ، فطابت نفسه »[٦] .

ثم إن النّبي ﷺ أقبل على أصحابه فقال لهم : « قوموا فانحروا ثم احلقوا ـ وكرر ذلك ثلاثاً ـ فوجم جميعهم وما قام منهم أحد ، فدخل على زوجته أم سلمة ، وذكر لها مالقي من الناس ، فقالت له : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم .

ثم جاء نسوة مؤمنات (بعد انصرافه إلى المدينة) مهاجرات بدينهن ، بينهن أم كلثوم بنت عقبة ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا جاءَكُمُ المؤمِناتُ مُهاجراتٍ ، فامْتَحِنوهنَّ ، اللهُ أعلمُ بإيمانِهِنَّ فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمناتٍ فلا تَرجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، ولا هُمْ

(٦) متفق عليه .

رمل فيه النبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك . والاضطباع هو جعل الرجل وسط ردائه تحت منكبه الأيمن وطرفيه على منكبه الأيسر . ويسن أن يفعل ذلك أيضاً بين الميلين عند السعي بين الصفا والمروة للاتباع .

غير أن شيئاً من ذلك لا يستحب للمرأة .

ثانياً : ذهب بعض الفقهاء إلى جواز عقد النكاح حالة الإحرام بحج أو عمرة ، اعتماداً على الرواية التي نقلت أنه ﷺ ، عقد على ميمونة أثناء إحرامه .

والذي عليه جماهير الفقهاء أنه لا يجوز للمحرم أن يعقد نكاحاً لا لنفسه ولا وكالة عن غيره مطلقاً[٣٦] . وذهبت الحنفية إلى أنه لا يحرم للمحرم أن يتولى عقد النكاح مطلقاً ذلك لأنهم يفسرون (النكاح) في قوله ﷺ : « إن المحرم لا يَنكح ولا يُنكح »[٣٧] بالجماع .

هذا وقد اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمرات وحجّ حجة واحدة روى مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلهن في ذي القعدة إلا التي مع حجته : عمرةً من الحديبية في ذي القعدة ، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة ، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة وعمرة في حجته[٣٨] .

غزوة مؤتة

وقد كانت في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة . ومؤتة قرية على مشارف الشام ، وهي التي تسمى اليوم : الكرك .

وسببها ما ذكرناه من مقتل الحارث بن عمير الأزدي ، رسول رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره .

---

(٣٦) انظر مغني المحتاج : ٢١٨/٢

(٣٧) رواه مسلم .

(٣٨) مسلم : ٦٠/٥ وروى البخاري نحوه .

فنـدب النـاس للخروج إلى الشـام ، وسرعـان مـا اجتمع من المسلمين ثلاثـة آلاف مقاتل قد تهيؤوا للخروج إلى مؤتة .

ولم يخرج النبي ﷺ معهم ، وبذلك تعلم أنهـا في الحقيقـة ليست بغزوة وإنما هي سرية ، ولكنّ عامة علماء السيرة أطلقوا عليهـا اسم الغزوة لكثرة عدد المسلمين فيها ولما كان لها من أهمية بالغة . وقال لهم رسول الله ﷺ : « أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ، فـإن قتل فعبـد الله بن رواحـة ، فـإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلـوه عليهم[٣٩] . وأوصاهم ﷺ أن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجـابوا ، وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم » .

قال ابن إسحـاق : « ودّع رسول الله ﷺ وأصحـابـه المسلمين وأمراءهم عند خروجهم من المدينـة ، وفي تلـك الأثنـاء بكى عبـد الله بن رواحـة ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ قال : أما والله ما بي حبّ الـدنيـا ولا صبـابـة بكم ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيـة من كتـاب الله تعـالى يـذكر فيهـا النار : ﴿ وإنْ منكم إلاّ واردُها كان على رَبِّكَ حتْماً مقضيّا ﴾ فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود .

ونـــاداهم المسلمـون وهم يسيرون : صحبكم الله ودفـع عنكم وردكم إلينـــا صالحين . فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أســـــأل الرحمن مغفرة وضربة ذات قرع تقذف الزبـدا

---

(٣٩) رواه البخـاري ، وأحمـد وابن سعـد في طبقـاتـه ، ولكن ليس في البخـاري : فـإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلاً .

أو طعنـة بيـدي حَرّان مُجهزةً بحربة تنفذ الأحشـاءَ والكبـدا
حتى يقال إذا مرّوا على جدثي أرشده الله من غاز، وقـد رشـدا

ولما فصلوا من المـدينـة سمع العـدو بمسيرهم ، فجمعوا لهم : جمع هرقل لهم أكثر من مئة ألف مقاتل من الروم ، وجمع شرحبيل بن عمرو مئة ألف مقاتل آخر من قبائل لخم وجُذام والقَين وبهراء .

وسمع المسلمون بـذلـك فـأقـامـوا في معـان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقـالـوا : نكتب إلى رسـول الله ﷺ فنخبره بعـدد عـدونـا . فشجعهم عبـد الله بن رواحـة وقـال لهم : يـا قـوم ، والله إن التي تكرهـون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بعـدد ولا قوة ، ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحـدى الحسنيين : إما ظهور أو شهادة .

والتقى المسلمون بـأعـدائهم قبيل الكرك ، وقـد اجتمع منهم مـا لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والعتاد ، فأخذ اللواء زيد بن حـارثـة فقـاتل وقاتل المسلمون معه حتى قتل رضي الله عنه طعناً بالرماح . ثم أخـذ اللواء جعفر بن أبي طالب فأبلى بلاء عظيماً ، حتى إذا ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها ثم انطلق يشتد في قتال القوم وهو يرتجز :

يـا حبـذا الجنـة واقترابهـا طيبـة وبـارداً شرابهـا
والروم روم قـد دنـا عـذابهـا كافرة بعيـدة أنسـابهـا
عليّ إذ لاقيتُها ضرابها

وظل يقـاتل حتى قتل رضي الله عنـه ، ضربـه رجل من الروم فقـدّه نصفين ، فوجد في جسمه خمسون طعنة ، ليس منها شيء في ظهره[٤٠] ! .. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وانطلق يرتجز قائلاً :

أقسمت يـــا نفس لتنزِلنّـــه لتنزلن أو لتُكرَهِنّـــــــه
إن أجلب الناس وشدوا الرنـة مـــالي أراك تكرهين الجنَّـــة
قد طال ماقد كنت مطمئنـة هـل أنت إلا نطفـــة في شَنَّـــة

ولم يزل يقـاتـل حتى قُتـل رضي الله عنـه . ثم اتفـق النـاس على إمرة خـالـد بن الوليـد فـأخـذ اللواء ، وقـاتل المشركين حتى انهزموا ، فـانحـاز بجيشه حينئذ عائداً إلى المدينة » .

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يـأتيهم خبرهم ، فقـال : « أخـذ الرايـة زيـد فـأصيب ، ثم أخـذ الرايـة جعفر فـأصيب ، ثم أخـذ الرايـــة ابن رواحـــة فأصيب ـ وعيناه تذرفـان ـ حتى أخـذ الرايـة سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم » .

وهذا الحديث يدل كما ترى ، على أن الله أيـد المسلمين بـالنصر أخيراً ، وليس كما قال بعض رواة السيرة أن المسلمين انهزموا وتفرقوا ، وعـادوا بعـد ذلك إلى المدينـة . ولعل مقصود الـذين قـالوا هـذا ، أن المسلمين لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم ، واكتفوا بانكشافهم عن مواقعهم ، خوفاً على

---

(٤٠) رواه البخاري .

المسلمين ، وانقلبوا عائدين إلى المدينة ، ولا شك أنه تدبير حكيم من خالد بن الوليد رضي الله عنه .

قال ابن حجر : وقع في المغازي لموسى بن عقبة ـ وهي أصح المغازي ـ قوله : « ثم أخذه (يعني اللواء) عبد الله بن رواحة فقُتل ، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد ، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين » . قال العماد بن كثير : « ويمكن الجمع بأن خالداً حاز المسلمين وبات ، ثم أصبح وقد غير هيأة العسكر فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، ليتوهم العدو أن مدداً قد جاء المسلمين . فحمل عليهم خالد فولّوا فلم يتبعهم ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى[٤١] .

ولما دنوا من المدينة ، تلقاهم رسول الله ﷺ ، ولقيهم الصبيان يسرعون ، فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر ! . فأتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه .. وجعل الناس يصيحون بالجيش : يا فرار ، فررتم في سبيل الله .. فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » .

العبر والعظات :

أهم ما يثير الدهشة ، في هذه الغزوة ، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم والمشربين العرب ! .. لقد رأيت أن عدد المشركين ومن معهم من الروم قد بلغ ما يقرب مئتي ألف مقاتل ! .. وذلك على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد وعامة كتاب السيرة[٤٢] على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف . ومعنى ذلك أن

---

(٤١) انظر فتح الباري : ٣٦١/٧ و ٣٦٢

(٤٢) انظر طبقات ابن سعد : ١٧٥/٣ وسيرة ابن هشام : ٣٧٥/٢

عدد المشركين والروم قد بلغوا مالا يقل عن خمسين ضعفاً لعدد المسلمين ! ..

وهي نسبة إذا ماتصورتها ، تجعل رقعة الجيش الإسلامي ، أمام حشود الروم والمشركين ، أشبه ماتكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحر خضم مائج ، هذا إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الأبهة والبذخ ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من ذلك القلة والفقر ! ..

ومكان الدهشة في الأمر ، أن تجد المسلمين بعد هذا كله ـ وهم سرية ليس فيها رسول الله ﷺ ـ مقبلين غير مدبرين ، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزناً ، مع أنها ـ فيما يبدو ويظهر ـ لو التفّت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم ، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة في جوف قطعة أرض سوداء ! ..

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك ، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليمّ المتلاطم . يقتل أميرهم الأول ، ثم الثاني ، فالثالث ، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب ، حتى يدخل الرعب الإلهي في أفئدة كثير من المشركين ، دون أن يكون له سبب ظاهر ، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير ، وتقتل منهم خلائق لاتكاد تحصى ! ..

ولكن الدهشة كلها تزول ، والعجب ينتهي ، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله ، والاعتماد عليه ، واليقين بوعده .

بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين ـ إذا كانوا مسلمين ـ أن لا يكونوا كذلك والعجيب فيهم حقاً ، أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدّة حساب مع ذلك في أفكارهم ، إلى جانب ما وعد الله به من نصر وتأييد ، أو جنة ونعيم خالدين ! .. فالمسلمون ـ كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ـ لا يقاتلون بعدد ولا قوة ، ولا كثرة ، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به .

ثم إن هذه الغزوة ، تنطوي ، على عظات ودلالات باهرة كثيرة ، نذكر منها ما يلي :

أولاً : دلت توصية النبي ﷺ ، على أنه يجوز للخليفة أو رئيس المسلمين أن يعلق إمارة أحد الناس بشرط وأن يولّي المسلمين عدة أمراء بالترتيب ، كما فعل النبي ﷺ في تولية

زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة ، قال العلماء : « والصحيح أنه إذا أمر الخليفة بذلك فإن ولاية الكل تنعقد ، بوقت واحد ، في الحال ، ولكنها لاتنفذ إلا مرتبة »[٤٣] .

ثانياً : دلت توصية الرسول ﷺ أيضاً ، على مشروعية اجتهاد المسلمين في اختيار أميرهم ، إذا غاب أميرهم ، أو وكل إليهم الخليفة اختيار من يرون . وقال الطحاوي : « هذا أصل يؤخذ منه أن على المسلمين أن يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر » . كما دلت هذه التوصية على مشروعية اجتهاد المسلمين في حياة النبي ﷺ .

ثالثاً : لقد رأيت أن النبي ﷺ نعى لأصحابه زيداً وجعفر وابن رواحة وعيناه تذرفان وبين رسول الله ﷺ وبينهم مسافات شاسعة بعيدة ! ..

وهذا يدل على أن الله تعالى قد زوى لرسوله الأرض ، فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ، ماحدث أصحابه به ، وهي من جملة الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها حبيبه ﷺ .

كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقته على أصحابه ، فلم يكن شيئاً قليلاً أن يبكي رسول الله ﷺ وهو واقف في أصحابه يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء . وأنت خبير أن بكاءه ﷺ عليهم ، لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره فإن العين لتدمع والقلب ليحزن ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليها .

رابعاً : وحديث نعيه ﷺ لهؤلاء الشهداء الثلاثة ، يسجل فضلاً خاصاً لخالد بن الوليد رضي الله عنه ، فقد قال لهم في آخر حديثه : « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم » . وتلك أول وقعة يحضرها خالد رضي الله عنه في صف المسلمين ، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة . ومن هنا تعلم أن الرسول ﷺ ، هو الذي سجل لقب سيف الله ، لخالد رضي الله عنه .

ولقد أبلى رضي الله عنه ، في هذه الغزوة بلاء رائعاً ، روى البخاري عنه رضي الله عنه قال : « لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية » . قال ابن حجر : وهذا الحديث يدل على أن المسلمين قد قتلوا من المشركين كثيراً .

---

(٤٣) انظر فتح الباري : ٣٦١/٧

هذا ، وأما سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة : « يا فُرّار ، فررتم في سبيل الله » ، فهو أنهم لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم ، وتركوا الأرض التي قاتلوا فيها كما هي ولم يكن ذلك شأنهم في الغزوات الأخرى ، واكتفى خالد بذلك فكرّ عائداً إلى المدينة . ولكنه كما رأيت كان تدبيراً حكيماً من خالد بن الوليد رضي الله عنه حفظاً للمسلمين وهيبتهم التي انطبعت في أفئدة الروم ، ولذلك ردَّ النبي ﷺ عليهم قائلاً : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ، إن شاء الله » .

فتح مكة

وكان ذلك في شهر رمضان سنة ثمان من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

وسببها أن أناساً من بني بكر ، كلموا أشراف قريش في أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح . (وخزاعة كانت قد دخلت في عهد المسلمين) ، فأجابوهم إلى ذلك ، وخرج حشد من قريش متنكرين متنقبين ، فيهم صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ، فالتقوا مع بني بكر في مكان اسمه الوتير ، وبيتوا خزاعة ليلاً وهم مطمئنون آمنون ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً . وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة ، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بما أصابهم ، فقام وهو يجر رداءه قائلاً :

« لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب ، مما أنصر منه نفسي » وقال : « إن هذا السحاب ليُستهلُّ بنصر بني كعب »[٤٤] .

(٤٤) روى ذلك ابن سعد وابن إسحاق . وهذا النص من رواية ابن سعد . قال ابن حجر : ورواه البزار والطبراني وموسى بن عقبة ، وغيرهم ..

وندمت قريش على ما بدر منها ، فأرسلت أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ ليجدد الهدنة ويمادها . وقدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ فكلمه فلم يردّ عليه شيئاً ، فذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ ، فقال : « ما أنا بفاعل » .

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : « أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به (والذر صغار النمل) » .

وانطلق أبو سفيان عائداً إلى مكة خائباً ، لم يأت بشيء ! .

وتجهز رسول الله ﷺ ، وقد أخفى أمره ، وقال : « اللهم خذ على أبصار قريش فلا يروني إلا بغتة »[٤٥] .

ولما أجمع النبي ﷺ المسير ، كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يحذرهم من غارة عليهم من المسلمين . قال علي رضي الله عنه : « فبعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير ، والمقداد . فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة (امرأة) معها كتاب فخذوه منها . قال : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة . قلنا لها : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب . فقلنا : لتخرجنّ الكتاب أو لنلقين الثياب . قال : فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم

---

(٤٥) رواه ابن إسحاق وابن سعد بألفاظ متقاربة .

ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله ، لا تعجل عليّ ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ـ أي كنت حليفاً لهم ولست منهم ـ وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : إنه قد صدقكم ، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا عَدُوّي وعَدُوَّكُمْ أوْلِياءَ تُلْقونَ إليهِمْ بالْمَودّةِ ، وقَدْ كَفَروا بِما جاءَكُمْ مِنَ الحقّ ... ﴾ الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾[٤٦] . واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة كلثوم بن حسين ، وخرج يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان بعد العصر ، وأرسل ﷺ إلى من حوله من العرب : أسلم وغفار ومزينة ، وجهينة وغيرهم ، فالتقى كلهم في الظهران ـ مكان بين مكة والمدينة ـ وقد بلغ عدد المسلمين عشرة آلاف . ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشاً بعد ، ولكنهم كانوا يتوقعون أمراً بسبب فشل أبي سفيان فيما جاء به إلى المدينة ، فأرسلوا أبا سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ليلتمسوا الخبر عن رسول الله ﷺ فأقبلوا يسيرون ، حتى دنوا إلى مر الظهران فإذا هم بنيران عظيمة ، فبينما

---

(٤٦) متفق عليه واللفظ للبخاري .

هم يتســـاءلــون فيما بينهم عن هــذه النيران ، إذ رآهم أنـــاس من حرس رسول الله ﷺ فأتوا بهم رسول الله ﷺ فأسلم أبو سفيان »[٤٧] .

قال ابن إسحاق يروي عن العباس تفصيل إيمان أبي سفيان : « فلما أصبح ، غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لاإله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! .. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد . وقال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله ، فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال له العباس : ويحك ! .. أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق فأسلم .

قال العباس : فقلت يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما أراد رسول الله ﷺ المسير مقبلاً إلى مكة ، قال للعباس : احبس أبا سفيان بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها قال : فخرجت فحبسته عند مضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه ،

---

(٤٧) إلى هنا من رواية البخاري ، وليس فيها كما ترى إشارة إلى إسلام صاحبيه أيضاً . والذي ذكره علماء السيرة ، وفي مقدمتهم موسى بن عقبة ، أن بديلاً وحكيماً أسلما بمجرد دخولهما على رسول الله ﷺ ، وتأخر أبو سفيان بإسلامه حتى أصبح . فلذلك عنيت رواية البخاري بذكر أبي سفيان وأهملت ذكر صاحبيه .

ومرت القبائل عليها راياتها ، كلما مرت قبيلة ، قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول : سليم ، فيقول : ما لي ولسليم ؟ .. وهكذا ، حتى مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبة فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ! .. قال : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداةَ عظيماً ! .. فقال : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن »[٤٨] .

ثم قال له العباس : « النجاةَ إلى قومك ! .. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة قبل أن يصلها رسول الله ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فأقبلت إليه امرأته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه وهي تقول : اقتلوا الْحُمَيْت الدسم الأحمس ، قُبّح من طليعة قوم ! .. فقال : ويلكم لا تغرنكم هذه من نفوسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد »[٤٩] .

وبلغ رسول الله ﷺ أن سعد بن عبادة قال لأبي سفيان عندما رآه في

---

(٤٨) رواه ابن سعد ، وابن إسحاق ، وابن جرير ، وروى نحوه البخاري ، والألفاظ متقاربة .

(٤٩) ابن إسحاق .

مضيق الوادي : « اليوم يوم الملحمـة ، اليوم تُستحـل الكعبـة ، فلم يرض عليـه الصلاة والسلام بقولـه هـذا ، وقـال : بل اليوم يوم الرحمـة ، اليـوم يعظم الله الكعبة . وأمر قادة جيوشه أن لا يقاتلوا إلا من قـاتلهم »[٥٠] إلا ستة رجال وأربعـة نسوة ، أمر بقتلهم حيثمـا وجـدوا ، وهم : عكرمـة بن أبي جهـل ، وهبّـار بن الأسـود ، وعبـد الله بن سعـد بن أبي سرح ، ومقيس بن صبـابـة الليثي ، والحويرث بن نُقَيْـد ، وعبـد الله بن هلال ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو بن هشام ، وفرتَنى وقرينة (وكانتـا جاريتين تتغنيان دائماً بهجاء النبي ﷺ)[٥١] .

ودخل النبي ﷺ مكة من أعلاها (كداء) وأمر خالـد بن الوليـد أن يدخل بمن معه من أسفلها : (كـدى) . فـدخل المسلمون مكـة من حيث أمرهم ، ولم يجد أحد منهم مقاومة ، إلا خالـد بن الوليـد ، فقـد لقيـه جمع من المشركين فيهم عكرمـة بن أبي جهـل ، وصفـوان بن أميـة ، فقـاتلهم خالـد فقتل منهم أربعـة وعشرين من قريش ، وأربعـة نفر من هـذيل . ورأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف من بعيد ، فأنكر ذلـك ، فقيل لـه : إنه خالد قوتل فقاتل ، فقال : « قضاء الله خير »[٥٢] .

---

(٥٠) رواه البخاري وابن إسحاق وغيرهما .

(٥١) رواه ابن سعد وابن إسحـاق ، قـال ابن حجر : وقـد جمعت أسماء هؤلاء الرجـال السـتة والنسوة الأربع من متفرقات الأخبار .

(٥٢) رواه ابن سعد في الطبقات ، وروى ابن حجر عن موسى بن عقبة نحوه ، وفي سيرة ابن هشام أن الذين قتلوا من المشركين ثلاثة عشر أو أربعة عشر . والحديث رواه البخاري بـاختصـار ، راجع فتح الباري : ٨/٨ و ٩ .

روى ابن إسحـــاق عن عبـــد الله بن أبي بكر والحـــاكم عن أنس ، أن رســـول الله ﷺ لمـــا انتهى إلى ذي طـــوى وقف على راحلتـــه معتجراً (متعمماً) بشقة بردٍ حَبِرَة ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ماأكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونـه ليكاد يمس واسطـة الرحل .

وروى البخاري عن معاوية بن قرة قـال : سمعت عبـد الله بن مغفل يقول : « رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقتـه وهو يقرأ سورة الفتح ، يرجّع ، وقال : لولا أن يجتمع الناس حولي لرجّعت كما رجع .

ودخل ﷺ مكة متجهاً إلى البيت ، وحوله ثلاث مئـة وستون صنماً ، فجعل يطعنهـا الواحـدة تلو الأخرى بعود في يـده ، وهو يقول : « جـاء الحق وزهق الباطل . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد »[٥٣] . وكان في جـوف البيت أيضـاً آلهـة ، فـأبى أن يـدخـل وفيـه الآلهـة ، وأمر بهـا فـأخرجت وأخرجت صـور لإبراهيم وإسماعيـل في أيـديهما الأزلام . فقـال النبي ﷺ : « قاتلهم الله لقـد علموا مـا استقسما بهـا قـط . ثم دخل البيت فكبّر في نواحي البيت وخرج ولم يصل فيه »[٥٤] .

وكان قد أمر ﷺ عثمان بن طلحة (وهو من حجبة البيت) أن يأتيه بالمفتاح ، فجاءه بـه ، ففتح البيت ، ثم دخل النبي ﷺ البيت ، ثم خرج

---

(٥٣) متفق عليه .

(٥٤) رواه البخاري . وروى مسلم أنه ﷺ دخل البيت فصلى فيه ، وسنـذكر تحقيق ذلـك في التعليق إن شاء الله .

فدعا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح ، وقال له : خذوها خالدة مخلدة ، إني لم أدفعها إليكم (أي حجابة البيت) ولكن الله دفعها إليكم ، ولا ينزعها منكم إلا ظالم . يشير بقوله هذا إلى قول الله تعالى : ﴿ إنّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها ﴾[٥٥] [النساء ٥٨/٤] .

وأمر رسول الله بلالاً فصعد فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة . وأقبل الناس كلهم يدخلون في دين الله أفواجاً . قال ابن إسحاق : وأمسك النبي ﷺ بعضادتي باب الكعبة وقد اجتمع الناس من حوله ما يعلمون ماذا يفعل بهم ، فخطب فيهم قائلاً :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب ، وتلا قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ إنّا خلقْناكُم من ذَكرٍ وأنثى وجَعَلناكُم شُعوباً وقبائلَ لتَعارَفوا إنّ أكرَمَكم عِندَ اللهِ أتقاكُمْ ﴾ . ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[٥٦] .

وروى الشيخان عن أبي شريح العدوي أنه ﷺ قال فيما خاطب به الناس يوم الفتح : « إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها أناس ، لا يحلّ

---

(٥٥) رواه الطبراني من مرسل الزهري ، وابن أبي شيبة ، وابن إسحاق . وانظر فتح الباري : ١٤/٨

(٥٦) وروى نحوه ابن سعد أيضاً في طبقاته .

لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجراً ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها ، فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب » .

ثم إن الناس اجتمعوا بمكة لمبايعة رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله ، فلما فرغ ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش ، فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة رضي الله عنها ، فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله ﷺ : « تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً ، فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما أخذته على الرجال ، وسنؤتيكه ، قال : ولا تسرقن . قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة ، وما أدري أكان ذلك حلاً لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان ، وكان شاهداً لما تقول : أمّا ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل . فقال عليه الصلاة والسلام : وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك . قال : ولا تزنين ، قالت : وهل تزني الحرة ! . قال : ولا تقتلن أولادكن ، قالت : قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر من قولها حتى استغرب . قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، فقالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : ولا تعصينني في معروف . فقال رسول الله ﷺ لعمر : بايعهن

واستغفر لهن رسول الله ، فبـايعهن عمر . وكان رسول الله ﷺ لا يصـافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه ، إلا امرأة أحلّها الله له »[٥٧] .

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ، قـالت : « كان النبي ﷺ يبـايع النسـاء بـالكـلام ، بهـذه الآيـة : لا يشركن بـالله شيئـاً ، قـالت : وما مست يـد رسول الله ﷺ يـد امرأة إلا امرأة يملكهـا » . وروى مسلم عن عائشة بنحوه[٥٨] .

« وأجـارت أم هـانئ بنت أبي طـالب رضي الله عنهـا ، يوم الفتـح ، رجلاً من المشركين ، وكان علي رضي الله عنه يريد قتله ، قالت : فجئت إلى النبي ﷺ فوجـدتـه يغتسل ، وفـاطمـة بنتـه تستره بثوب ، قـالت : فسلّمت عليه ، فقـال : من هـذه ؟ فقلت : أم هـانئ بنت أبي طـالب . فقال : مرحباً بأم هـانئ . فلمـا فرغ من غسلـه قـام فصلى ثمـاني ركعـات ملتحفاً في ثوب واحد ، ثم انصرف . فقلت : يـا رسول الله ، زعم ابن أمي عليّ أنه قـاتل رجلاً أجرتـه ، فلان : ابن هبيرة ، فقـال رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ »[٥٩] .

وأمـا أولئـك النفر الـذين كان رسول الله قـد هـدر دمهم ، فقـد قُتـل بعضهم وأسلم الآخرون : قتل الحـويرث وعبـد الله بن خطـل ومقيس بن حبـابـة ، وقتلت إحـدى الجـاريتين المغنيتين وأسلمت الأخرى . وشفع في

---

(٥٧) رواه ابن إسحاق وابن جرير .

(٥٨) انظر البخاري : ١٣٥/٨ ومسلم : ٢٩/٦

(٥٩) متفق عليه .

عبد الله بن سعد بن أبي سرح وحسن إسلامه ، وأسلم عكرمة ، وهبار ، وهند بنت عتبة .

روى ابن هشام أن فضالة بن عمير الليثي[٦٠] أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « أفضالة ؟ قال : نعم ، فضالة يا رسول الله ، قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله . فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله . ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه » .

ومرّ فضالة عائداً إلى بيته بامرأة كان يميل إليها ويتحدث معها ، فقالت له : هلمّ إلى الحديث ، فانبعث يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت : لا ... يأبى عليّ الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وأقام النبي ﷺ ، فيما رواه البخاري عن ابن عباس ، تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة : يصلي ركعتين .

العبر والعظات :

الآن ، وقد رأيت أحداث الفتح العظيم الذي أكرم الله به نبيه محمداً ﷺ وأصحابه ، تستطيع أن تبصر قيمة الدعوة السابقة وأحداثها وأن تبصر أسرارها وحِكَمها الإلهية مجسدة أمام عينيك .

---

(٦٠) ذكر هذه القصة ابن هشام في سيرته ، وأوردها ابن القيم في زاد المعاد .

الآن ، وقـد اطلعت على قصـة فتح مكـة ، تستطيع أن تـدرك قيمـة الهجرة منهـا قبل ذلك . تستطيع أن تدرك قيمـة التضحيـة بـالأرض والوطن والمـال والأهل والعشيرة في سبيل الإسلام . فلن يضيـع شيء من ذلـك كلـه إن بقي الإسـلام .. ولكن ذلـك كلـه لن يغني عن صاحبه شيئاً إن لم يكن قد بقي له الإسلام .

الآن ، وقد تأملت أحداث هـذا الفتح الأكبر ، تستطيع أن تـدرك تمـاماً قيمـة الجهـاد والاستشهاد والمحن التي تمت من قبله ، إن شيئاً من ذلك لم يـذهب بـدداً ، ولم ترق نقطـة دم لمسلم هـدراً ، ولم يتحمل المسلمون كل مـا لاقـوه ، ممـا قـد رأيت في غـزواتهم وأسفـارهم ، لأن رياح المصادمات فاجأتهم بها . ولكن كل ذلك كان جـاريـاً وفق حسـاب .. وكل ذلـك كان يؤدي أقساطاً من ثمن الفتح والنصر .. وتلـك هي سنـة الله في عبـاده ؛ لا نصر بـدون إسلام صحيح ، ولا إسلام بدون عبودية له ، ولا عبودية بدون بـذل وتضحيـة وضراعـة على بـابـه وجهاد في سبيله .

والآن ، وقـد رأيت خبر هـذا الفتـح ، تستطيـع أن تـدرك القيمـة الكبرى لصلـح الحـديبيـة ، وأن تستشف من وراء ظـاهرهـا الـذي أدهش عمر وكثيراً من الصحـابـة ، السر الإلهي الرائع ، وأن تقف باطمئنان تام على المعنى الذي من أجله أطلق الله على ذلـك الصلح اسم الفتح : ﴿ فجعلَ من دونِ ذلِكَ فتحاً قريبـاً ﴾ وإذا أدركت هـذا ، أدركت مزيـداً من حقائق النبوة التي كانت تقود حياة النبي ﷺ .

أتذكر يوم خرج النبي ﷺ من وطنه ، مكة ، مستخفياً في بطون الشعاب والأودية ، مهاجراً إلى يثرب ، وقد سبقه من قبله ولحقه من بعده أصحـابـه القلـة المستضعفون يتسللون مهاجرين ، وقد تركوا المال والأهل والأرض من أجل أن يبقى لهم الدين ؟ ..

هاهم أولاء وقد رجعوا إلى الوطن والأهل والمـال ، وقـد كثروا بعـد قلـة ، وتقووا بعـد ضعف ، واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالأمس خاشعين أذلاء خاضعين ..

ودخل أهل مكة في دين الله أفواجاً ، وأقبل بلال الحبشي وهو الـذي طـالمـا عـذب في رمضاء مكة على أيدي المشركين ، فصعد على الكعبة المشرفة ينادي بأعلى صوته :

الله أكبر .. الله أكبر .

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العـذاب : أحَـد ، أحَـد ، أحَـد ، هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعـالى قـائلاً : لاإلـه إلا الله محمـد رسول الله والكل خـاشع منصت خاضع ! ..

ألا إنها لحقيقة واحدة لا ثانية لها : هي الإسلام ، فما أحمق الإنسان وما أجهله ، حينمـا يكافح أو يناضل أو يجاهد في غير سبيل الإسلام ، إنما يكافح حينئـذ عن وهم لا حقيقـة لـه ولا طائل .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فـإن أحـداث هـذا الفتح العظيم تنطوي على دلالات وأحكام كثيرة مختلفـة ، يجب تبصرهـا والوقوف عليهـا . وسنـذكر مـا تيسر ذكره من ذلـك حسب ترتيب الأحـداث نفسها .

أولاً ـ ما يتعلق بالهدنة ونقضها :

١ ـ يدلنا سبب فتح مكة ، على أن أهل العهد والهدنة مع المسلمين ، إذا حاربوا من هم في ذمة المسلمين وجواره ، صاروا حربـاً لهم بـذلـك . ولم يبق بينهم وبين المسلمين من عهـد . وهذا مااتفق عليه علماء المسلمين .

٢ ـ تدلنا الطريقة التي قصد بهـا رسول الله ﷺ مكـة ، على أنـه يجوز لإمـام المسلمين ورئيسهم أن يفاجئ العدو بالإغارة والحرب لدى خيانته العهـد ونبـذه لـه ، ولا يجب عليـه أن يعلمهم بذلك . فقد رأيت أن النبي ﷺ لما أجمع الخروج إلى مكة دعا قائلاً : « اللهم خـذ على أبصار قريش فلا يروني إلا بغتة » ، وهذا مااتفق عليه عامة العلماء .

أما إذا لم تقع الخيانة ، وإنما خيف منهم ذلك ، بسبب علائم ودلائل قويـة ، فلا يجوز حينئذ للإمام أن ينبذ عهدهم ويفاجئهم بالحرب والقتال ، بل لا بد من إعلامهم جميعاً بذلـك أولاً ، بدليل قولـه تعـالى : ﴿ وإمّـا تخـافنّ من قومٍ خيـانـةً فـانْبِـذْ إليهم على سَواءٍ ، إنّ اللهَ لايحبُّ الخائنينَ ﴾ [الأنفال ٥٨/٨] أي أعلمهم كلهم عن نبذك لعهدهم .

٣ ـ وفي عمله ﷺ أيضـاً دليل على أن مبـاشرة البعض لنقض العهـد ، بمثـابـة مبـاشرة